



The Particle (Thumma) Between Order, Delay, Interval, Participation, and Exclusion: A Semantic Analytical Study in the Holy Qur'an

Abubakerar Hasan Omar Elbaqar

Department of Arabic Language, Faculty of Education, Bani Waleed University, Libya

(ثمّ) بين الترتيب والتراخي والمهلة والتشريك والاستبعاد دراسة تحليلية دلالية في القرآن الكريم

أبوبكر حسن عمر البقار

قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة بني وليد، ليبيا

*Corresponding author: abubakeralbaqar@bwu.edu.ly

Received: November 05, 2025

Accepted: December 27, 2025

Published: December 31, 2025

Abstract:

This study examines the Qur'anic use of (thumma) through lexical, grammatical, and exegetical approaches, focusing on the types of delay it conveys (temporal, hierarchical, or cognitive) and the criteria governing its usage. It analyzes selected verses, especially in contexts of creation and the relation between seeking forgiveness and repentance, as well as cases of semantic implication. The study concludes that (thumma) is a precise linguistic tool that structures meaning and reflects the depth and coherence of Qur'anic discourse.

Keywords: order, delay, exclusion, meaning, context.

المخلص

يتناول هذا البحث دلالة حرف العطف (ثمّ) في الاستعمال القرآني، من خلال الجمع بين التأصيل اللغوي والتحليل النحوي والتوجيه التفسيري، للكشف عن طبيعة التراخي الذي تفيده: أهو زمني أم رتبي أم ذهني، كما يسعى إلى بيان معايير العدول إلى هذا الحرف في السياق القرآني، وتحليل تجلياته في عدد من الآيات، لا سيما في سياقات الخلق، واقتران الاستغفار بالتوبة، ودلالات الاستبعاد، ويخلص البحث إلى أنّ (ثمّ) أداة دلالية دقيقة تسهم في بناء المعنى وتدرّجه، وتكشف عن أحكام النظم القرآني وعمق توجيهه.

الكلمات المفتاحية: الترتيب، التراخي، الاستبعاد، الدلالة، السياق.

المقدمة

تعد حروف المعاني في العربية مفتاح الإحاطة بأسرار الدلالة ومنازع الاستعمال؛ فهي لا تضطلع بوظائف ربط شكلية فحسب، بل تسهم في بناء العلاقات المعنوية وإعادة تشكيل البنية المعرفية للكلام. ومن أبرز

هذه الحروف حرف العطف (ثم)، الذي يتجاوز في النظم القرآني كونه مجرد أداة تقييد الترتيب والتراخي، ليصبح أثراً دلاليّاً ممتداً يكشف عن إحكام النظم وعمق التوجيه.

إن البحث في دلالات الحروف القرآنية ليس ترفاً علمياً، بل هو ضرورة لفهم المقاصد الشرعية والبيانية؛ فقد أكدت الدراسات الوصفية أن لكل حرف خصوصية دلالية تتشكل وفق السياق الذي يرد فيه¹. كما أن العدول عن أداة إلى أخرى، أو استخدام الحرف في سياق يغيّر المتبادر للذهن، يضيف أبعاداً تأويلية غنية تؤثر بشكل مباشر في توجيه النص وفهم مقاصده².

وقد اعتنى العلماء الأوائل بدراسة هذه الدقائق اللغوية في مجالسهم ومصنفاتهم، محاولين الكشف عن الأسرار الكامنة وراء الاختيارات اللفظية في لغة العرب³. كما استمر الجهد العلمي في تقليب وجوه النظر في المصنفات النحوية واللغوية القديمة وتصويب ما اعترها من تعقبات، تأكيداً على أن النص اللغوي يظل حقلاً حيويّاً للاستنباط والتحقيق⁴.

وانطلاقاً من هذا الترابط الوثيق بين الحرف والسياق، يسعى هذا البحث إلى تحليل دلالة (ثم) في الاستعمال القرآني، للكشف عن طبيعة التراخي الذي تقيده: أهو زمني أم رتبي أم ذهني؟. كما يهدف إلى بيان معايير العدول إلى هذا الحرف، وتحليل تجلياته في سياقات الخلق، واقتران الاستغفار بالتوبة، ودلالات الاستبعاد، وصولاً إلى فهم تكاملي يربط بين الأصل اللغوي والتحليل النحوي والتوجيه التفسيري.

الحقيقة اللغوية لـ (ثم) بين الإطلاق والتقييد.

إنّ الوقوف على أصول الألفاظ في العربية ليس ترفاً علمياً؛ بل هو مفتاح الإحاطة بأسرار الدلالة ومنازع الاستعمال، إذ تنبثق المعاني من جذورها انبثاقاً يكشف عن وحدة خفية تربط بين صورها المختلفة؛ ومن هذا الباب يجيء حرف (ثم)، لا على أنه مجرد أداة عطف تقيّد الترتيب مع التراخي؛ بل بوصفه أثراً دلاليّاً ممتداً من أصل اشتقاقي عميق، تدور مادته على الاجتماع المصحوب باللين والإصلاح.

فيقال: ثمّ الشيء ثمّاً، أي جمعه، ويُقال أيضاً: ثمّ الشيء أئمّه ثمّاً، إذا أصلحته ورممته بالثمام، ومن هذه المادة جاء حرف (ثم)، الذي يُستعمل في العربية للدلالة على الترتيب مع التراخي⁽⁵⁾، فهو لا يقتصر على الجمع، بل يشير أيضاً إلى فاصل بين الأمور المترتبة، ففيه إحياء بالانتقال من حال إلى حال، مع تدرّج ورفق، وذلك على نحو يعكس الأصل الاشتقاقي للمادة في معاني الجمع والإصلاح واللين. إنّ الأصل الجامع في هذه الأداة اللغوية يتمثل في الجمع المقيد بالإصلاح؛ أي الجمع في موضع يقتضي إزالة الخلاف وتحقيق الوصل بين ما كان متباعداً أو متناقراً، ويتّضح ما بين هذه المعاني من ترابط وثيق؛

¹ ينظر: أبو بكر حسن البقار، (2017).

² ينظر: أبو بكر حسن البقار، (2022).

³ Elbaqar, (2025).

⁴ صالح غيث فرج الدعيكي، (2024).

⁽⁵⁾ ينظر: المقاييس: (ثم)، ص/135.

إذ إنَّ في العطف بذاته معنى الجمع، غير أنَّ التراخي ليس مقصوداً لذاته؛ بل هو من توابع الإصلاح، فالإصلاح لا يكتمل إلا بعد رفع ما يحول دون الجمع، فلا يُضمَّ شيء إلى آخر إلا بعد إزالة ما يعترض طريق الوصل بينهما، ومن ثمَّ فإنَّ كل سياق تُستعمل فيه (ثمَّ) يحمل دلالة هاتين الخصوصيتين معاً: خاصية الجمع، وخاصية إزالة البعد أو الفصل؛ فكأنما تشير إلى انتقال من عنصر إلى آخر بعد جهدٍ في رَأب الصدع وجمع ما كان متفرقاً، أو في سدِّ الفجوة بينهما⁽⁶⁾.

مفهوم (ثمَّ) عند النحاة: دراسة في الدلالة والاستعمال.

ولمَّا كانت الحروف في العربيَّة تضطلع بوظائف دقيقة تتجاوز حدود الربط الشكلي إلى بناء العلاقات المعنوية بين أجزاء الكلام، عُنِيَ النحاة ببيان دلالاتها عنايةً بالغة، فكشفوا عن دقائق استعمالها، وحزروا ما تنطوي عليه من فروقٍ لطيفةٍ لا يستبينها إلا من أمعن النظر في كلام العرب، فد(ثمَّ) يحمل خصوصيةً دلاليةً تجمع بين التشريك والترتيب المصحوب بالمهلة، الأمر الذي جعله موضعَ تدقيقٍ ونظرٍ عند أئمة الصناعة النحوية، حيث سعوا إلى تحديد حقيقته وضبط معناه في ضوء الاستعمال العربي الموثوق، وفي هذا السياق ترد نصوصهم شاهدةً على عمق هذا الفهم ودقته، إذ يقول سيبويه: ((ومن ذلك: مررتُ برَجُلٍ ثمَّ امرأَةً، فالمرورُ هاهنا مُرورانٍ، وجعلتُ الأول مبدوءاً به، وأشركتُ بينهما في الجرِّ))⁽⁷⁾.

ووصفَ المبرِّد(ثمَّ) بأنها مثل الفاء، إلا أنها أشدُّ تراخياً⁽⁸⁾، وهي حرفٌ يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والترتيب، والمهلة، وما أوهم خلاف ذلك فغير معتبر⁽⁹⁾.

يُظهر كلامُ سيبويه في هذا الموضوع دقَّة التحليل النحوي عنده، إذ لم يكتفِ بوصف وظيفة (ثمَّ) بكونها أداة عطف وحسب؛ بل كشف عن أثرها التركيبي في إعادة توزيع الفعل الإعرابي، فبيَّن أنَّها تُنشئ تعدُّداً في متعلِّق المرور، مع بقاء التشريك في الحكم والجرِّ، وهو ما يدلُّ على وعيٍ مبكِّرٍ بطبيعة العلاقات الدلالية داخل الجملة، لا بوصفها روابطٍ سطحية؛ بل بوصفها عناصر تُعيد تشكيل البنية المعنوية للكلام.

أمَّا المبرِّد، فقد قرَّرَ بعبارةٍ أكثر تركيزاً الطابع الدلالي ل(ثمَّ)، حين جعلها في حكم الفاء من حيث أصل العطف، غير أنَّها تتميز عنها بإفادة التراخي، وهو توصيفٌ يكشف عن إدراكٍ دقيقٍ للفروق الدقيقة بين حروف العطف، كما أنَّه حصر دلالتها في ثلاثة أمور: التشريك، والترتيب، والمهلة، يُعدُّ صياغةً جامعةً لمجمل وظائفها النحوية، مع التنبيه على أنَّ ما يُتوهم من معانٍ خارجة عن ذلك لا يُعتدُّ به في الاستعمال العربي الفصيح.

⁽⁶⁾ ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، للمصطفوي: 30/2.

⁽⁷⁾ الكتاب: 438/1.

⁽⁸⁾ ينظر: المقتضب: 148/1.

⁽⁹⁾ ينظر: الإلتقان، للسيوطي: 22/2، والجنى الداني: ص/426.

وبذلك يتكامل المنظوران؛ إذ يميل سيبويه إلى التحليل البنيوي الدقيق للأثر الإعرابي، بينما يركّز الميرد على التقعيد الدلالي العام وتحديد الوظيفة النحوية في إطارٍ أوضح وأقرب إلى التلخيص، فيتجلى من خلالهما ثراء الدرس النحوي في تتبّع دقائق الحروف ومعانيها.

مفهوم التراخي وحقيقته.

مفهوم التراخي:

مادة: (رَخَو) تدور في أصلها على معنى اللين والسهولة، ثم تتسع دلالاتها لتشمل معاني التراخي والتباعد والتعاقس، في تدرّجٍ دلاليٍّ يعكس مرونة الاستعمال العربي واتساعه؛ وفي ضوء هذا الأصل تتجلى استعمالات الفعل وما اشتقّ منه؛ من ذلك قولهم: شيءٌ رَخُو، وفرسٌ رَخُو: إذا كانت سهلة مسترسلة، وتراخي عني فلانٌ: تباطأً، وتراخي عن الأمر: تقاعس عنه، وتراخي ما بينهما: تباعد، وراخيته عني: باعدته⁽¹⁰⁾.

التراخي في اصطلاح النحاة:

يُعدّ ضبط المصطلحات النحوية من أهمّ مفاتيح فهم دلالة الحرف في العربية؛ إذ لا تستقيم وظيفة الحرف في التركيب إلا بإحكام معناه الاصطلاحي وتحديد حدوده الفارقة، ومن بين هذه المفاهيم يبرز مفهوم التراخي في اصطلاح النحاة، بوصفه أحد الأبعاد الزمنية التي تُنظّم علاقة العطف بين الأحداث، وتميّز بين صور الترتيب المختلفة في الكلام العربي، وقد تتبّه النحاة إلى أنّ هذا المفهوم لا يُفهم على إطلاقه؛ بل يتأثر باعتبارات دقيقة تتصل بسياق الخطاب ومقامه، وما يقتضيه التصوّر الذهني للمتكلم والمخاطب، وهو ما يفتح المجال لبيان دقائق هذا الاصطلاح وتفصيلاته عند أهل الصناعة.

يقول الخضري: ((هو أن يكون بين المعطوفين مهلة؛ لكنّ هذا التراخي يخضع لاعتبارات نفسية وعقلية، وتقديرات في تصوّر المتكلم حيناً، وفي عقل المخاطب وحسّه حيناً آخر، ولأحوالٍ ودواعٍ تقتضيها مقامات الكلام وسياقاته حيناً ثالثاً، ووراء هذا تكمن أسرار الحرف، وبقدر استجابته لهذه الطموحات يتفاضل كلامٌ على كلام))⁽¹¹⁾.

فالحديث إمّا أن يقع مقترناً بغيره، وفي هذه الحالة تكون العلاقة بين الحدثين علاقةً مصاحبة، وإمّا أن يقع أحدهما قبل الآخر أو بعده؛ وهذه الصورة الثانية تشترك في كون أحد الحدثين متأخراً زماناً عن الآخر، غير أنّ هذا التأخر ينقسم إلى قسمين بحسب وجود فاصلٍ زمنيٍّ (مهلة) بين الحدثين أو عدمه؛ فإذا لم توجد مهلة بينهما كانت العلاقة الزمنية التعقيب، أمّا إذا وجدت المهلة فالعلاقة حينئذٍ هي التراخي⁽¹²⁾.

⁽¹⁰⁾ ينظر: المقاييس: (رخو)، ص. 376.

⁽¹¹⁾ من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، ص/159.

⁽¹²⁾ ينظر: أثر العلاقات الزمنية بين الأحداث في إظهار دلالة الاستبعاد في القرآن الكريم، ص/328.

ويضيف ابن المنير وجهاً آخر يراه في هذا الحرف يُثري المعنى ويعمّقه وهو أنّ (ثمّ) قد لا تعني كما هو الأصل فيها تراخياً في زمن الفعل وحدوثه؛ وإنما التراخي يكون في دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقائه لا تراخي الزمن الفاصل بينه وبين غيره، فيكون معنى هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَا يُتَّعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾، أي: يدومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الإذابة، وهذا معنى أدقّ من المعنى المتبادر إلى الفكر من استعمال حرف (ثمّ)⁽¹³⁾.

وتتعدّد المواضع التي حُمِلت فيها (ثم) على أصلها في إفادة التراخي الزمني، لا على مجرد التراخي الرتبي؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَسْتُوْبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾⁽¹⁴⁾، ف (ثم) هنا للمهلة الزمنية وحدها، ولا يجمع بينها وبين المهلة الرتبية؛ لأنّ ما بعدها ليس أرفع درجة مما قبلها بقرينة السياق⁽¹⁵⁾.

حقيقة الترتيب مع التراخي:

يُعدّ الترتيب مع التراخي من المفاهيم الدقيقة في باب العطف عند النحاة، إذ لا يقتصر على مجرد تأخّر الحدث الثاني عن الأول؛ بل يتجاوز ذلك إلى بيان طبيعة هذا التأخّر ومداه الزمني، وما يكتنفه من دلالات تُستفاد من السياق لا من اللفظ ذاته؛ ولذلك كان تحديد حقيقته متوقفاً على القرائن الاستعمالية والعرف اللغوي، لا على ضابطٍ زمنيّ ثابتٍ يمكن ضبطه على وجهٍ كليّ، وفي ضوء هذا التصوّر تتضح حقيقة هذا النوع من الترتيب وما يميّزه عن غيره من صور التعاقب الزمني في التركيب العربي.

وحقيقته أن يكون المعطوف واقعاً بعد المعطوف عليه لا على الفور؛ بل بعد مضيّ مدّة زمنية يُفهم من السياق أنها طويلة نسبياً، غير أن تقدير هذه المدّة ليس له ضابط محدد في اللغة، بل يُرجع فيه إلى العرف الشائع والقرائن السياقية، إذ لا يمكن وضع ميزان دقيق يُحدّد ما يُعدّ طويلاً أو قصيراً على وجه العموم؛ لأنّ ما يُعدّ تراخياً طويلاً في واقعة ما، قد يُعدّ وجيزاً في غيرها، ومن ثمّ فلا يوجد في اللفظ نفسه ما يدل على مقدار التراخي، وإنما يُفهم ذلك من السياق والغرض البلاغي الذي ورد فيه العطف⁽¹⁶⁾.

مفهوم الاستبعاد وحقيقته.

مفهوم الاستبعاد.

البُعْدُ ضِدُّ الْقُرْبِ وليس لهما حدٌّ محدود، والمتأمل في معاجم اللغة يجد أنّ مادة (بُعْد) تدور على أصلٍ دلاليّ يتمثّل في المقابلة بين القُرب والبعد، إذ يُقال: بَعُدَ الشَّيْءُ بِيَعْدُ بُعْدًا فهو بعيد، في مقابلة القرب المكاني أو الزماني؛ وهذا الأصل لا يقتصر على المحسوسات؛ بل يتسع ليشمل الدلالات المعنوية، حيث

⁽¹³⁾ ينظر: الكشاف: 393/1، 394..

⁽¹⁴⁾ سورة التوبة، آية: (118).

⁽¹⁵⁾ ينظر: التحرير والتنوير: 53/11.

⁽¹⁶⁾ ينظر: النحو الوافي: 413/3. والبحر المحيط: 64 /2.

يُستعار البعد للدلالة على التفاوت في المعاني أو استحالة الوقوع أو ضعفه، ومن هذا الأصل يتفرّع معنى الاستبعاد مصدر (استبعد)، أي تباعد، ويُقال: استبعدتُ الشيء أي رأيته بعيداً، أو نسبته إلى البعد الحقيقي أو المجازي، و(استبعده): عدّه بعيداً⁽¹⁷⁾.

ويبدو أنّ مصطلح الاستبعاد على هذا الوجه من الدلالة قد انفرد به الزمخشري، ولم يرد مصطلحاً مستقلاً عند طائفة من النحاة المتقدمين، مما قد يُفهم منه أنه من التوجيهات التي انفرد بتقريبها الزمخشري في سياق تفسيره، حيث يتكرر هذا النمط من التحليل في الكشاف بصورة لافتة⁽¹⁸⁾.

ويتبدّى معنى الاستبعاد كما يظهر في بعض توجيهات الزمخشري من خلال تصورٍ دقيقٍ لعلاقةٍ غير مألوفة بين المعطوف والمعطوف عليه، تقوم على نوعٍ من المفارقة أو المنافاة بينهما، ويتحقق هذا الأثر الدلالي حين يُساق المعطوف بعد (ثم) في سياقٍ يُشعر بضعف احتمال وقوعه أو بعده عن مقتضى ما قبله، بحيث يبدو المعطوف عليه كأنه يمهد لعدم حصول ما يليه من حكم أو حدث، بما يضيف على التركيب بعداً دلالياً يتجاوز مجرد الترتيب الزمني إلى إحياءٍ بالبعد والاستبعاد.

ففي قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفَرُوهَا كَالْكَافِرُونَ﴾⁽¹⁹⁾، ذهب الزمخشري إلى أن (ثم) في هذا الموضع تفيد الاستبعاد؛ لأنّ الإنكار الصادر منهم يُعدّ أمراً مستبعداً بعد تحقّق المعرفة وقيام الدليل، إذ إنّ إدراك النعمة والاعتراف بها يقتضي بطبيعته الإقرار لا الجحود، فكان وقوع الإنكار على هذا الوجه مخالفاً لما تقتضيه المقدمات العقلية والسياقية، فجاء التعبير بما يدل على بُعده واستغرابه في هذا المقام⁽²⁰⁾.

توجيه قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُ رَقَبَةً ۝ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝﴾⁽²¹⁾.

وقوله: ﴿أَقْتَحَمَ﴾؛ فالقاف والحاء والميم أصلٌ صحيحٌ يدل على تورّد الشيء بأدنى جفاءٍ وإقدام، وقحم في الأمور قُحوماً: رمى بنفسه فيها من غير نُربة، و(قَحَمَ الطريق): مصاعبه⁽²²⁾؛ والاقترام: توسّط شدّةٍ مُخيفةٍ⁽²³⁾.

⁽¹⁷⁾ ينظر: المفردات، للراغب، (بعد)، ص.133.

⁽¹⁸⁾ ينظر: من إضافات الزمخشري في حروف العطف، إبراهيم مناد، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد(86)، الجزء الرابع، ص. 1096.

⁽¹⁹⁾ سورة النحل، آية (83).

⁽²⁰⁾ ينظر: الكشاف: 3/460.

⁽²¹⁾ سورة البلد: الآيات: من: (11) إلى (17).

⁽²²⁾ ينظر: المقاييس: (قحم): ص/764.

⁽²³⁾ ينظر: المفردات: (قحم)، ص/510.

و: ﴿الْعَقَبَةُ﴾ عقب: أصلان صحيحان، أحدهما يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره، والأصل الآخر: يدل على ارتفاعٍ وشدّةٍ وصعوبةٍ، والافتحامُ: افتعال، بمعنى: اختيار الورود على أمرٍ شاقٍّ، أو ورود فيه مشقّةٌ (24).

والعقبة الصعبة العبور إلى النجدين: هي برنامج ديني إلهي في الحياة يُوصل السلك إلى السعادة الدنيوية والأخروية، وأمّا ارتباطُ فكِّ الرقبة والإطعام، بطي العقبة والصعود إلى النجدين: فإنّ بفكِّ الرقبة يفكُّ رقبته عن العلائق والقيود، ويوفّق فيه، وبإطعام الفقير واليتيم يوفّق في جلب الطعام المعنويّ وتحصيله (25).
فكما أنّ السلوك في العقبة صعبٌ فيه شدة وزحمة، ولازم أن يتحمّل السلك هذه الصعوبة والشدّة إلى أن يرتقي إلى أعلى الجبل: كذلك فكُّ الرقبة وإطعامٍ في يومٍ ذي مسغبةٍ، فالعمل بها صعبٌ شديد في السلوك إلى مراحل الكمال والإيمان واللقاء، فإنه يحتاج إلى قطع محبة الدنيا وعلائقها (26).

ويقول ابن منظور: والمعنى: فلا هو اقتحم العقبة، والعربُ إذا نفثت بـ(لا) فعلاً كررتها، كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ (27)، ولم يكررها هنا لأنه أضمر لها فعلاً دلّ عليه السياق، كأنه قال: فلا آمن ولا اقتحم العقبة، والدليل عليه قوله: ﴿تُرْكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (28).

ويقول أبو حيّان في توجيه دخول (ثم) في الآية: ﴿تُرْكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: إنها معطوفة على قوله: ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ﴾، وقد جيء بـ (ثم) لا للدلالة على التراخي الزمني، بل للتراخي في الرتبة؛ لأن الإيمان والفضيلة متقدّمان بالطبع، إذ لا تُقبل الأعمال الحسنة إلا بعد تحقق الإيمان، فهو شرطٌ في صحة وقوعها من الطائع، ويجوز أن يكون المعنى: ثمّ كان في عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان، إذ لا ينتفع العبد بطاعته إلا إذا وافى ربه مؤمناً، كما يُحتمل أن يكون التراخي واقعاً في الذكر، كأنه قيل: ثمّ اذكر أنه كان من الذين آمنوا، أي ممن يوصي بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والطاعات، والانكفاف عن المعاصي (29).

وإلى ذلك ذهب العوتبي، والمعنى: وكان من الذين آمنوا؛ لأنه لا يجوز أن نقول: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ (30)، إلى قوله: ﴿ذَا مَرَّتْ﴾ (31)، من قبل أن يكون من الذين آمنوا (32).

(24) ينظر: المقاييس، (عقب)، ص. 584.

(25) ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، (قحم): 222/9.

(26) ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، (عقب): 226/8.

(27) سورة القيامة: آية: (31).

(28) ينظر: اللسان: (قحم): 254/9.

(29) ينظر: البحر المحيط: 483/10.

(30) سورة البلد: الآية: (13).

(31) سورة البقرة: الآية: (16).

(32) ينظر: الإبانة: 329/2.

وذهب بعض الأصوليين إلى أن (ثم) في هذه الآية بمعنى الواو مجازاً للمجاورة بينهما، وتقدير الآية: (وكان من الذين آمنوا)⁽³³⁾؛ إلا أن ابن عاشور يجعلها للتراخي الرتبي؛ لأن مضمون الجملة المعطوفة بها أرقى رتبة في الغرض المسوق له الكلام من مضمون الكلام المعطوف عليه، إذ إن ذكر تلك الأمور التي يعز إيفؤها حقها قد يُغفل السامع عن أمر آخر عظيم، فنُبِّه عليه بالعطف بـ(ثم) للإشارة إلى أنه أكد وأهم⁽³⁴⁾. والتراخي الرتبي عند ابن عاشور: هو مهلة تخييلية في الأصل تشير إلى أن المعطوف بـ(ثم) أعرق في المعنى الذي تتضمنه الجملة المعطوف عليها، حتى كأن العقل يتمهل في الوصول إليه بعد الكلام الأول، فينتبه السامع لذلك كي لا يغفل عنه بما سمع من الكلام السابق، وشاع هذا الاستعمال حتى صار كالحقيقة⁽³⁵⁾.

ويُفهم من هذا التعريف أنه يُحدث نقلةً دقيقةً في دلالة المهلة، إذ يُخرجها من نطاقها الزمني المألوف في عطف المفردات إلى أفقٍ أرحب يتصل بمهلة الفكر والتأمل عند عطف الجمل؛ فهي على هذا ليست مجرد فاصلة زمنية، بل فاصلةً ذهنيةً يقتضيها تدرج المعنى وارتقاؤه، وهذا ما أشار إليه بقوله: إنها تتسلخ عن معناها الأول عند عطف الجمل لتدلّ على التراخي في الرتبة؛ فيكون ما بعدها أرفع منزلةً مما قبلها من بعض الوجوه، على نحوٍ يستدعي تأنيّ الذهن في تلقّيه، وتمهّله في إدراك ما ينطوي عليه من دلالةٍ أعمق وأبعد غورًا.

موقف بنت الشاطي:

تُشير بنت الشاطي إلى أن المفسرين توقّفوا طويلاً عند عطف (الإيمان) على (فك رقبة) بحرف (ثم)، وهو الحرف الذي يدل في الأصل على الترتيب مع التراخي، فتأوّلوه بما يُبعده عن دلالاته الظاهرة وسياقه المباشر؛ ليجعلوا التراخي هنا تراخيًا في الرتبة لا في الزمان، فقالوا: إنما أتى بـ(ثم) لإبراز أن الإيمان أرقى مرتبة من الأعمال السابقة، كي لا يُوضع على قدم المساواة مع فكّ الرقاب أو إطعام اليتامى والمساكين؛ لكن بنت الشاطي ترفض هذه التأويلات وتُصرّ على الأخذ بظاهر السياق ومعنى (ثم) الصريح، وترى أن القرآن يُرتب خطوات اقتحام العقبة التي على الإنسان أن يُكابدها، فيجعل العتق والتراحم خطوتين سابقتين على الإيمان، وملازمتين له في الطريق إليه، فالإيمان بحسب هذا الفهم، لا يُنتظر من يستعبد عباد الله، أو يتحجّر قلبه حتى يُعرض عن جوع يتيمٍ قريب، أو مسكينٍ معدم في يوم مجاعة، فلا موضع في قلب مثل هذا الجاحد القاسي لإيمانٍ صادق؛ لأنه أخلّ بأساس من أسس الإنسانية والرحمة، فكيف يُرجى منه أن يصدق في إيمانه بالله، وهو جافٍ عن عبادته؟⁽³⁶⁾.

⁽³³⁾ ينظر: البحر المحيط: 483/10.

⁽³⁴⁾ ينظر: التحرير والتوير: 360/30.

⁽³⁵⁾ ينظر: التحرير والتوير: 382/1.

⁽³⁶⁾ ينظر: الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق: ص/189، 190.

ويبدو موقف بنت الشاطيء في هذا الموضوع قائماً على نزعة تفسيرية حريصة على استنطاق ظاهر اللفظ في ضوء السياق، دون الانصراف إلى تأويلات تُباعد بين الدلالة الأصلية للحرف واستعماله القرآني، فهي إذ ترفض حمل (ثم) على مجرد التراخي الرتبي، إنما تسعى إلى إبقاء المعنى على امتداده الطبيعي، بوصفه ترتيبياً يقتضي مهلة ذات دلالة تربوية وسلوكية، لا مجرد تفاضل تجريدي بين الأعمال.

وهذا التوجيه على ما فيه من جرأة في مخالفة جمهور المفسرين؛ يكشف عن محاولة لربط الدلالة النحوية بالبنية القيمية في الخطاب القرآني، حيث لا يُنظر إلى الإيمان باعتباره مرتبةً ذهنيةً منفصلة؛ بل ثمرةً لمسارٍ عمليٍّ يتهيأ له الإنسان عبر أفعال الرحمة والتحرر من قسوة النفس.

غير أنّ هذا الرأي مع قوته من جهة الاعتداد بالسياق، فإنه يظلّ محلّ نظر؛ إذ إنّ حمل (ثم) على التراخي الرتبي له ما يسوّغه في الاستعمال العربي، وقد جرى عليه كثيرٌ من أهل التفسير استناداً إلى شواهد لغوية معتبرة، ومن ثمّ، فإنّ الجمع بين الوجهين قد يكون أولى بأن يفهم التراخي هنا على أنّه ذو بُعدٍ مزدوج: زمنيٍّ من حيث الترتيب، ورتبيٍّ من حيث تعالي منزلة الإيمان، وبذلك يلتئم الظاهر اللغوي مع المقصد الدلالي، دون إقصاء أحد الجانبين.

معايير العدول إلى (ثم) في السياق القرآني:

ليس من المقبول في ضوء ما استقرّ من إعجاز النظم القرآني أن يُحمل اختلاف أدوات العطف على الترادف أو يُفسّر بوصفه تنويحاً أسلوبياً خالياً من الغاية؛ إذ إنّ العدول من أداة إلى أخرى إنما هو عدولٌ مقصود، تُوجّهه دواعٍ دقيقة تتصل ببناء المعنى وتشكيل مساراته في ذهن المتلقّي، ومن ثمّ، فإنّ اختيار (ثم) في مواضع مخصوصة لا يمكن أن يفهم بمعزلٍ عن شبكةٍ من المعايير الدلالية والبلاغية التي تستدعيها طبيعة السياق، سواء أكان ذلك لما تفيد من الترتيب مع التراخي، أم لما قد يتولّد عنها من إحياءٍ بالترقي، أو الاستبعاد، أو إحداث مسافةٍ زمنيةٍ أو ذهنيةٍ بين الأحداث.

وفي هذا الإطار سندرس جملةً من الآيات القرآنية التي ورد فيها العدول إلى (ثم) بالنظر والتحليل، وربطها بسياقاتها التي وردت فيها، والكشف عمّا تنطوي عليه من دلالاتٍ خاصة، وما تؤدّي من وظائف بلاغيةٍ في توجيه المعنى، ومن خلال ذلك يتبيّن وجه اختيار هذا الحرف دون غيره في تلك المواضع، بما يبرز دقّة النظم القرآني وإحكامه، ويُسهّم في تعميق الفهم لخصوصية التعبير فيه.

توجه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾.

يرى أبو حيان أنّ (ثم) في هذا الموضوع قد خرجت عن معناها الأصلي في اللغة العربية، إذ الأصل أن تعيد التراخي الزمني بين الفعلين، والإفاضة هنا قد وقعت وانتهت، وقد جاء الأمر بالذكر مقروناً بها، فكيف

(37) سورة البقرة: الأيتان: (198، 199).

يُعقل أن يُؤمر بالذکر بعدها بـ(ثمّ) التي تدل عادةً على التراخي في الزمن؟ وقد أُجيب عن هذا بعدة وجوه، أبرزها⁽³⁸⁾:

الأول: أن الترتيب المراد في الآية هو ترتيب في الذکر، لا في الوقوع الزمني للأفعال، ويُقوي هذا التأويل أن الإفاضة المشار إليها ليست مأموراً بها في ذاتها، بل الأمر إنما هو بذكر الله عند حصولها، وعليه فإن الأمر بالذکر بعد الإفاضة لا يستلزم أن تكون الإفاضة مأموراً بها، وإنما وقع الذکر تابعاً لوقوعها، لا مترتباً عليها زمنياً.

الثاني: زعم بعضهم أن (ثمّ) في هذا الموضع ليست على بابها من إفادة الترتيب والتراخي، بل هي بمعنى الواو، ولا تدل على ترتيب زمني بين الفعلين، فكأنه قال: (وأفيضوا من حيث أفاض الناس)، فجاءت (ثمّ) هنا لمجرد عطف جملة على أخرى، دون أن تكون متصلة بها من جهة الزمن أو الترتيب السياقي، بل هي جملة مستأنفة أدرجت ضمن السياق، لا على سبيل التتابع الزمني، بل على سبيل تنويع الخطاب والانتقال من معنى إلى آخر.

الثالث: ذهب بعضهم إلى حمل (ثمّ) على معناها الأصلي في إفادة الترتيب، غير أنهم لم يجدوا ذلك مستقيماً على ظاهر السياق، فاضطروا إلى القول بوجود تقديم وتأخير في الآيات، فجعلوا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ معطوفاً على قوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَكْأُولَى الْأَلْبَابِ﴾⁽³⁹⁾، وكأن التقدير: (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم، ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله)، وعلى هذا التقدير، تكون الإفاضة التي شرط عليها الذکر هي ذاتها الإفاضة المأمور بها أولاً؛ لكنّ هذا الوجه يُفضي إلى القول بالتقديم والتأخير في نظم القرآن، وهو أمر لا يصار إليه إلا عند الضرورة القصوى، وقد اتفق أهل العلم على تنزيه القرآن عن مثل هذه الضرورات ما لم يُدلّ الدليل القاطع عليها، إذ الأصل في النظم القرآني الاتساق والبيان، لا التعقيد والتقدير⁽⁴⁰⁾.

الرابع: ذهب الزمخشري إلى أن (ثمّ) في هذه الآية ليست على معناها المعروف من الترتيب الزمني، وإنما جاءت للمغايرة، أي للدلالة على اختلاف جوهرى بين الأمرين، كما تقول: (أحسن إلى الناس، ثم لا تحسن إلى غير كريم)، فجاءت (ثمّ) هنا لا للتراخي في الزمان، بل لتباعد الرتبة بين الإحسان إلى الكريم، والإحسان إلى غيره، إذ بينهما بُعدٌ شاسع في القيمة والمعنى؛ وعلى هذا المنوال، جاء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ بعد الأمر بذكر الله عند الإفاضة من عرفات، للدلالة على تفاوت حال الإفاضة من عرفات، فإفاضة المشركين من غير عرفات كانت على غير هدى، بينما الإفاضة من عرفات، كما أمر الله، هي الصواب والاتباع، فجاءت (ثمّ) للتفريق بين الصحيح والخاطئ، والهدى والضلال، لا لمجرد الترتيب الزمني⁽⁴¹⁾.

⁽³⁸⁾ ينظر: البحر المحيط: 412 / 1.

⁽³⁹⁾ سورة البقرة: الآية: (197).

⁽⁴⁰⁾ ينظر: البحر المحيط: 412 / 1.

⁽⁴¹⁾ ينظر: الكشاف: 349 / 1.

وقد تولى ابن المنير تفصيل ما أجمله الزمخشري، مبيّناً أن الآية الكريمة اشتملت على نكتتين بلاغيتين: أما الأولى: فهي أنّ الآية جمعت بين إفاضتين في سياق واحد، فُعُطفت إحداهما على الأخرى، مع أن مرجعها واحد، وهو الإفاضة التي أمر بها الحُجّاج، وقد يتوهّم متوهّم أن هذا من قبيل عطف الشيء على نفسه، لكن يُدفع هذا الوهم ببيان أن بين الإفاضتين تغييراً، كالتغاير بين العام والخاص؛ فالإفاضة الأولى جاءت مطلقة، غير مقيدة، وأما الإفاضة الثانية فهي مخصوصة بمطابقة فعل الناس، أي موافقة فعل إبراهيم ومن حجّ على هديه؛ فكان الإفاضة الأولى بياناً للفعل في ذاته، والثانية بياناً لكيفيته الصحيحة. وأما الأخرى:، فهي: أن العطف وإن استقام في المعنى، إلا أنه وقع ب(ثم)، وهي تعيد المهلة والتراخي، فلو كانت الإفاضتان في زمانٍ واحد أو متقارب، فكيف يُفهم هذا التراخي؟ فكان الجواب أن التراخي هنا ليس زمانياً، بل هو تراخٍ في الرتبة، فالإفاضة المقيدة بموافقة فعل الناس (المقصود بهم أهل الحق)، أرفعُ قدرًا، وأعلى منزلة، فجاء التراخي لإظهار علو المرتبة، لا لتأخير الزمن، وهذا هو الجواب الذي انتهى إليه ابن المنير بعد تحقيقٍ وتأنٍ وإيضاح⁽⁴²⁾.

فعلى رأي الزمخشري جاءت (ثم) لتلمّح إلى بُعد ما بين إفاضة صحيحة وأخرى باطلة، حينما كانت قریش تختص بالإفاضة من المزدلفة دون عامة الناس الذين يفيضون من عرفات؟!.

وفي الحقيقة إنّ ما ذهب إليه الزمخشري مردود عليه، فليست الآية كالمثال الذي مثله، وحاصل ما ذكر أن (ثم) تسلب الترتيب، وأنها لها معنى غيره سماه بالتفاوت والبُعد لما بعدها مما قبلها، ولم يجز في الآية أيضاً ذكر الإفاضة الخطأ، فيكون: (ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾، جاءت لبُعد ما بين الإفاضتين وتفاوتهما، ولا نعم أحداً سبقه إلى إثبات هذا المعنى ل(ثم)⁽⁴³⁾.

ويرى القفال: بأن معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ عبارة عن زمان الإفاضة من عرفة، وكأنه أراد أن يغيّر بذلك بين الإفاضتين؛ لأنّ الأولى في المكان، والثانية في الزمان، وهذا التخرّيج مردود عند أبي حيان، فلا ضرورة لإخراج (حيث) عن موضعها الأصلي، من كونها ظرف مكان، ولا تغاير بين الإفاضتين؛ لأنّ كلاً منهما يقتضي الآخر ويدل عليه، فهما متلازمان؛ أعني: مكان الإفاضة من عرفات، وزمانها، فلا يحصل بذلك جوابٌ عن مجيء العطف ب(ثم)⁽⁴⁴⁾.

تداخل دلالة الاستبعاد مع التعجب واللوم.

توجيه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾⁽⁴⁵⁾.

⁽⁴²⁾ ينظر: حاشية الكشاف، لابن المنير: 412/1.

⁽⁴³⁾ ينظر: البحر المحيط: 2/302.

⁽⁴⁴⁾ ينظر: البحر المحيط: 2/302.

⁽⁴⁵⁾ سورة الأنعام، آية: (1).

قال الزمخشري: ((فما معنى(ثم)؟، قلت: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته؛ وكذلك: ﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا لَهُمُ الْبُيُوتَ﴾ (46): استبعاد؛ لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محيبيهم ومميتهم وباعثهم)) (47).

ويرى أبو حيان أن حمل الزمخشري (ثم) على معنى الاستبعاد غير سديد، إذ لا ينهض به دليل من الاستعمال، ولا يعضده السياق الذي وردت فيه؛ لأنها لم توضع لذلك، والاستبعاد مستفاد من السياق، لا من (ثم)، ولم أعلم أحداً من النحويين ذكر ذلك، بل (ثم) هنا للمهلة في الزمان، وهي عاطفة جملة اسمية على جملة اسمية، أي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معطوفة على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ثم اعترض على الزمخشري في تجويزه أن تكون معطوفة على خلق، بأن (خلق) صلة، فالمعطوف عليها يُعطى حكمها، ولكن ليس ثم رابطٌ يعود منها على الموصول (48).

وبهذا يتضح سبب الخلط بين التراخي الرتبي والاستبعاد في بعض مواضع التراخي؛ إذ يقع الخلط بين ما يُعده السياق من معنى عدم مناسبة وقوع الحدث الثاني الذي عُبر عنه بالمعطوف بعد وقوع الحدث الأول الذي عُبر عنه بالمعطوف عليه وبين المعيار الذي جعله السياق أساساً لصحة التراخي بين الحدين.

ولم تستفد دلالة الاستبعاد جميع دلالات التراخي في الآية؛ إذ يلوح السياق بدلالة أظهر في بيان البعد المعنوي، وهي التعجب المشوب بالتوبيخ، فالله تعالى بعد أن خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وهو المنفرد بالإلهية والربوبية يُعجب من حال الكافرين الذين، مع اعترافهم بأن الخلق والتدبير له وحده، يعدلون به أصنامهم؛ فهم مَلُومون على ذلك، وهكذا لم تبق دلالة الاستبعاد منفردة، بل شفعها السياق بدلالة التعجب واللوم، مع ترابطٍ يُشعر بأن الاستبعاد يُفضي إلى التعجب والتوبيخ (49).

وعُدَّ التعجب والتوبيخ الدلالة الرئيسة مردّه إلى قيام العجب في الحدين؛ إذ إن إشراك المشركين بالله مع علمهم بأنه خالق كل شيء أعجب من أصل علمهم، وهو ما يمثل الترتي الدال على البعد المعنوي. وقد بين ابن عاشور هذا المعنى بقوله إن ثم للتراخي الرتبي؛ لأن عدولهم عن عبادة الخالق مع علمهم بذلك أمرٌ أعجب. ومن الناحية من جعل ثم للتعظيم، وهو في الحقيقة تعظيم مشفوعٌ بدلالات الاستبعاد والتعجب اللتين يقتضيهما السياق.

ومما يُحمل على بيان التدرج في العجب؛ قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ (50)، فالآيات قد عُرضت عليهم عرضاً فيه من الإعجاز والوضوح ما يُثير العجب، لكن الأعجب من ذلك هو إعراضهم عنها رغم وضوحها؛ بل إن استخدام (ثم) يدل على تصاعد في موضع العجب، إذ يرى الزمخشري أن التركيب إذا كان طلبياً،

(46) سورة الأنعام، آية: (2).

(47) الكشف: 321/2.

(48) ينظر: البحر المحيط: 428/4.

(49) ينظر: أثر العلاقات الزمانية بين الأحداث في إظهار الاستبعاد، ص/345.

(50) سورة المائدة، آية: (75).

فإن ما قبل (ثم) يفهم على جهة الجواز، أما ما بعدها فيُفهم على جهة الوجوب؛ وعلى هذا الأساس فسّر قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾⁽⁵¹⁾، فالمعنى: أن السير في الأرض مباح، كالسفر للتجارة أو طلب الرزق، لكن النظر في آثار الماضين وعواقب المكذبين واجب، وقد أُشير إلى هذا الفرق بين المباح والواجب بـ(ثم)، لأنها تفيد التراخي الرتبي، لا الزمني، مما يُبرز الفرق بين المرتبتين⁽⁵²⁾.

وهذا التراخي الرتبي يقوم على ما يمكن تسميته بالمهلة التخيلية، وهي في أصلها تشير إلى أن المعطوف بـ (ثم) يحمل معنى أعمق أو أقوى من ذلك الذي ورد في الجملة الأولى، حتى ليُخيّل إلى الذهن أن العقل يحتاج إلى زمنٍ من التمهّل ليدركه ويستوعبه بعد تلقي الكلام السابق، فكأنما يُنبه السامع إلى ألا يُغفل هذا المعنى الجديد، لشدة ارتباطه وعمق رتبته، وقد شاع هذا الأسلوب البلاغي في الاستعمال حتى أشرف على أن يكون حقيقة لغوية، لما فيه من دقة في تسلسل المعاني بحسب مراتبها، لا بحسب أزمنتها⁽⁵³⁾.

تداخل دلالة الاستبعاد مع التعجب واللوم.

حاول الزمخشري أن يستثمر هذا المعنى في استشراف معان قرآنية خفية فشعر أن التراخي الزماني في (ثم) هو شكلٌ من أشكال الوقف أو الانقطاع في الكلام، ينبّه القارئ أو السامع إلى خطورة ما يلي (ثم) من المعاني، وإذا أراد القرآن أن يستبعد حصول أمرٍ من الأمور لأنه قدّم له بما لا يمكن أن يُفسي إليه استعمل (ثم) للتعبير عن ذلك الاستبعاد فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾⁽⁵⁴⁾؛ استبعاداً لأنّ يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم⁽⁵⁵⁾.

دلالة الاستبعاد على الارتقاء في المعنى.

إذا ما أراد النظم القرآني أن يدفع بالمعنى إلى ذروته وتصعيده بحيث يبلغ درجةً أبلغ في التأثير أو أشد في الاستغراب، عدّل إلى الربط بـ(ثم)؛ إذ لا تقتصر دلالتها على مجرد الترتيب مع التراخي، بل تتجاوز ذلك إلى الإيحاء بتدرّج المعنى واشتداده، حتى كأنّ ما بعدها أبلغ وقعاً وأقوى أثراً ممّا قبلها، ومن هنا تبرز وظيفتها في سياقات الترقّي، ولا سيما في مقامات الوعد، حيث يُراد نقل الذهن من درجةٍ إلى ما هو أرفع منها، على نحو يُعمّق الأثر ويُعظّم الدلالة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُقْتَلُوا كُفْرًا يُولُواكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ﴾⁽⁵⁶⁾؛ ف(ثم) هنا للتراخي في المرتبة؛ لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليّتهم الأدبار⁽⁵⁷⁾.

(51) سورة الأنعام، آية: (11).

(52) ينظر: الكشاف: 325/2، 227/2.

(53) ينظر: التحرير والتوير: 382/1.

(54) سورة الأنعام، آية: (2).

(55) ينظر: الكشاف: 321/2.

(56) سورة آل عمران، آية: (111).

(57) حاشية ابن المنير على الكشاف: 609/1، 610..

وهذا التعبير يدلّ على تصاعد في الوعد الإلهي، من وعدٍ أدنى إلى وعدٍ أعلى، فقد وعد المؤمنون أولاً بأن عدوهم سيفرّ أمامهم في ساحة القتال، ثم ترقى هذا الوعد إلى ما هو أعظم وأكمل، وهو أن هؤلاء الأعداء لا يكتب لهم النصر على الإطلاق، ويظهر هذا التصاعد بشكل أوضح باستخدام حرف (ثم) بدلاً من (الواو)؛ لأن (ثم) تُستخدم هنا للدلالة على التراخي في الرتبة، لا في الترتيب الزمني، وكأن المعنى: بعد الوعد الأول، هناك ما هو أسمى في المنّة، وأبلغ في مراتب الإحسان، وهو: أن هؤلاء القوم لا يُنصرون أبداً⁽⁵⁸⁾.

ويورد ابن عاشور مثلاً يُعزّز به مذهبه في فهم (ثم) بوصفها دالة على الارتقاء الرتبي لا التراخي الزمني، فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٥٩﴾ كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٦٠﴾﴾⁽⁵⁹⁾ إنه لا وجه هنا لاعتبار التراخي الزمني بين الجملتين؛ لأنهما تُعبّران في الحقيقة عن معنى واحد مكرّر، فدلّ ذلك على أن استخدام (ثم) إنما جاء للدلالة على الارتقاء في التهديد والوعيد، حيث إن مضمون الجملة التي بعد (ثم) أشدّ وقفاً وأعلى رتبة في الغرض المقصود (أي التهديد)، فلمّا كانت الصيغة الظاهرة متشابهة بين الجملتين، تعيّن أن يكون وجه الاختلاف والارتقاء في قوة المضمون لا في زمن الوقوع⁽⁶⁰⁾.

التراخي الزمني في (ثم) وإشكال الترتيب في آيات خلق السماوات والأرض.

توجيه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾⁽⁶¹⁾.

يُعدّ النظر في دلالة (ثم) في آيات خلق السماوات والأرض من أدقّ المواطن التي تتجلى فيها إشكالية الترتيب الزمني في الخطاب القرآني، إذ يرد هذا الحرف في سياقاتٍ قد يُتوهم منها تعاقبٌ زمنيّ محدّد، بينما تفتح دلالة السياق وآياتٍ آخر باباً لتعدّد الفهم في ترتيب الخلق وتقدير مراحلها، ومن هنا نشأ خلافٌ بين العلماء في أيّهما أسبق: خلق الأرض أم خلق السماوات، وهو خلافٌ يتصل في جوهره بفهم دلالة (ثم)؛ هل هي على بابها من إفادة التراخي الزمني، أم أنّها قد تُحمل على معنى آخر يرفع هذا التعارض الظاهر؟ وفي ضوء ذلك سنتطرق هنا إلى معالجة هذه الإشكالية من خلال تتبّع مواضع (ثم) في آيات الخلق، والنظر في سياقاتها، وتحليل ما تقيده من تراخٍ زمني أو غيره، وصولاً إلى بيان مدى تأثير ذلك في توجيه القول بترتيب الخلق، والكشف عن دقّة التعبير القرآني في هذا الباب.

ذهب ابن كثير إلى أن في هذه الآية دلالة على أنّه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً ثمّ خلق السماوات سبْعاً، وهذا شأنُ البناءِ أنْ يَبْدَأَ بِعِمَارَةِ أَسَافِلِهِ ثُمَّ أَعَالِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ⁽⁶²⁾.

(58) ينظر: الكشاف: 610/1.

(59) سورة النبأ: الآيتان: (4، 5).

(60) ينظر: التحرير والتنوير: 12/30. وينظر: أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير)، ص/470.

(61) سورة البقرة، آية: (29).

(62) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 71/1.

وأما ابن عاشور فيرى أنّ الجمل التي أفاد فيها العطف مهلةً رتبية قد تحتل إلى جانبها مهلةً زمنية، إلا أنّ المعوّل عليه هو مهلة الرتبة، وذلك إذا كان ما قبل (ثم) واقعاً قبل ما بعدها؛ أما إذا انعكس الأمر فإنّ الدلالة تتمحّض للتراخي الرتبي؛ فإن كانت السماء متأخرة الخلق عن الأرض، كانت (ثم) للتراخي الرتبي مع الزمني، أما إن كان خلق السماوات سابقاً، فإنّها تُحمل على الترتيب الرتبي فحسب⁽⁶³⁾.
رأي الشنقيطي:

يرى الشنقيطي أنّ هذه الآية تشتمل على دلالة بيّنة قاطعة في تقديم ذكر ما في الأرض على خلق السماء، بما لا يدع مجالاً للتردد في هذا الترتيب من حيث سياق البيان، وقد يتوهم من ظاهرها إشكال في ترتيب الخلق، وهو إشكال استدعى نظراً وتأملاً طويلاً، حتى يتبين وجه الجمع بين النصوص، ويمكن رفع هذا الإشكال من وجهين معتبرين، دلّ على كلّ منهما دليل من القرآن الكريم:
الوجه الأول: أنّ المراد بخلق ما في الأرض قبل السماء هو الخلق بمعناه اللغوي، أي التقدير، لا الخلق الفعلي الذي هو الإيجاد والإبراز من العدم إلى الوجود، فالخلق في لسان العرب قد يُطلق على التقدير، ومنه قول زهير:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

ويؤيد هذا المعنى ما ورد في سورة فصلت من قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، ثم أعقبه بقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾⁽⁶⁴⁾، مما يدل على أنّ التقدير سابق على تسوية السماء.

الوجه الثاني: أنّ خلق الأرض في طورها الأول قبل دحوها وبسطها يعدّ أصلاً لما فيها، فكان وجود هذا الأصل كافياً في إطلاق الخلق على ما سيوجد فيها تبعاً، وإن لم يكن قد وُجد بالفعل بعد، ويدل على هذا الاستعمال القرآني قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴿65﴾؛ بِخَلْقِنَا وَتَصْوِيرِنَا لِأَبِيكُمْ آدَمَ الَّذِي هُوَ أَصْلُكُمْ؛ فالمراد بذلك خلق آدم عليه السلام، لكونه أصل البشر، فنُسب الخلق إلى ذريته تبعاً له.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجه آخر في الجمع، وهو أنّ قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾⁽⁶⁶⁾ لا يقتضي الترتيب الزمني، بل إنّ لفظة (بعد) قد تأتي بمعنى (مع)، فيكون المعنى: والأرض مع ذلك دحاهها، ونظيره في الاستعمال قوله تعالى: ﴿عُنُقٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾⁽⁶⁷⁾، وعليه فلا إشكال في الآية، ويُستأنس لهذا القول

⁽⁶³⁾ ينظر: التحرير والتنوير: 384/1.

⁽⁶⁴⁾ سورة فصلت، الآيتان: (10، 11).

⁽⁶⁵⁾ سورة الأعراف، الآية (11).

⁽⁶⁶⁾ سورة النازعات، الآية (30).

⁽⁶⁷⁾ سورة القلم، الآية (13).

بِالْقِرَاءَةِ الشَّاذَّةِ، وَبِهَا قَرَأَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَالْأَرْضَ مَعَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾، وبذلك يزول الإشكال، ويتبين أنَّ الآيات متسقة في دلالتها، لا تعارض بينها عند إحكام النظر وجمع النصوص⁽⁶⁸⁾.

والحق أنَّ ما ذهب إليه الشنقيطي هو مستند قوي، فالخلق في أصل دلالاته اللغوية هو التقدير، ويُستعمل أيضاً في معنى الإيجاد والإبداع⁽⁶⁹⁾، فالأول هو تقدير الشيء قبل إيجاده، والثاني هو إبرازه إلى الوجود على غير مثالٍ سابق؛ ومن استعماله بمعنى الإبداع قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾⁽⁷⁰⁾، أي أوجدهما على غير مثالٍ متقدّم، ويؤكد هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽⁷¹⁾.

كما يُستعمل الخلق في معنى إيجاد الشيء من شيءٍ آخر، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾⁽⁷²⁾؛ أي أنشأكم ابتداءً من أصلٍ واحد.

وبهذا يتبين أن لفظ (الخلق) في الاستعمال القرآني لفظٌ مشترك الدلالة، يُحمل على معناه بحسب السياق، بين التقدير السابق، والإيجاد على غير مثال، أو الإنشاء من أصلٍ متقدّم.

التراخي في (ثم) وأثره في ترتيب الاستغفار والتوبة.

يُثير اقتران الاستغفار بالتوبة في الخطاب القرآني، مع توسط حرف العطف (ثم)، إشكالاً دلاليّاً جوهرياً يتعلق بجدلية الترتيب بينهما، وتكليف أداة (ثم) بوصفها رابطاً يفيد التراخي؛ فهل يحمل هذا التراخي أبعاداً زمنية واقعية تقتضي تتابعاً خطياً بين الفعلين، أم أنَّه تراخٍ رُتبِيٌّ وظيفته إرساء نسقٍ بلاغي وتربوي يعمق فهم العلاقة التلازمية بين الاستغفار والتوبة؟، وفي هذا السياق، نسعى إلى مقارنة أثر (التراخي) الذي تفيدته (ثم) في ترتيب هذين المفهومين، عبر استقراء السياقات القرآنية وتحليل الحملات البلاغية والزمنية المترتبة عليها، كاشفاً بذلك عن دقة التعبير القرآني وعمق مقتضياته التوجيهية.

توجيه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾⁽⁷³⁾.

ولمّا كانت دلالة (ثم) في هذا الموضع متشابكة بين مقتضيات اللغة وأبعاد السياق، وكان تحديد وجه التراخي فيها مؤثراً في فهم العلاقة بين الاستغفار والتوبة، فقد تعددت أنظار العلماء في توجيهها، وتتنوعت مسالكهم بين من غلب جانب الأصل اللغوي، ومن نظر إلى مقتضى السياق والبعد التربوي في الخطاب القرآني، ومن هنا تبرز الحاجة إلى عرض هذه الأقوال ومناقشتها، لا على سبيل الحكاية المجردة، بل بقصد تحرير

⁽⁶⁸⁾ ينظر: أضواء البيان: 13/7.

⁽⁶⁹⁾ ينظر: المفردات، (خلق)، ص. 209.

⁽⁷⁰⁾ سورة الأنعام، الآية (1).

⁽⁷¹⁾ سورة البقرة، الآية (117).

⁽⁷²⁾ سورة النساء، الآية (1).

⁽⁷³⁾ سورة هود، آية: (90).

محلّ النزاع، واستجلاء ما يقوم عليه كلّ توجيه من أسس دلالية، تمهيداً للوقوف على الوجه الأليق بسياق الآية ومقاصدها.

ذهب الشوكاني إلى أنّ تقديم الإرشاد إلى الاستغفار على الأمر بالتوبة إنما هو لما في الاستغفار من كونه طريقاً ممهّداً إليها، إذ هو وسيلتها ومقدّمتها؛ وقيل: بل التوبة من متمات الاستغفار ومكملاته. كما قيل إن معنى قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾ أي توبوا، ومعنى قوله: ﴿تُوبُوا﴾ أي أخلصوا التوبة، وداوموا عليها واستقيموا في مقتضاها؛ وقيل أيضاً: استغفروا من الذنوب الماضية، ثم توبوا من الذنوب المستقبلية؛ وقيل: استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إلى الله تعالى بالطاعة والإخلاص؛ وقيل: إنما قُدِّم الاستغفار لأن المغفرة هي المقصود الأعظم والغاية المنشودة، والتوبة هي السبب المفضي إليها، وما كان متأخراً في الحصول يُقدِّم في الطلب، كما قيل: استغفروا من صغائر الذنوب، وتوبوا إليه من كبائرها⁽⁷⁴⁾.

وَرَجَّحَ الألوّسي: بأنه لا اتحاد بين التوبة والاستغفار، والتراخي عليه يجوز أن يكون رتبيّاً، وأن يكون زمانياً⁽⁷⁵⁾.

وذهب بعض اللغويين إلى أنّ (ثمّ) قد تأتي بمعنى (الواو)، فقد روى القرطبي عن الفراء أنّ (ثمّ) في هذه الآية بمعنى (الواو)؛ لأنّ الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار⁽⁷⁶⁾.

وبهذا التقدير في دلالة (ثمّ) على الترتيب يندفع الاعتراض بأنّ (ثمّ) قد تخرج عن الترتيب والمهلة وتصير كالواو؛ لأنه إنما يتمّ على أنها تقتضي الترتيب الزمني لزوماً، أما إذا قلنا: إنها تردّ لقصد التفاوت والتراخي عن الزمان لم يحتج إلى الانفصال عن شيء مما ذكر من هذه الآيات الشريفة، لا أن تقول: إنّ (ثمّ) قد تكون بمعنى الواو⁽⁷⁷⁾.

الفروق الدلالية بين التوبة والاستغفار:

يقول الراغب: ((العَفْرُ: إلباس ما يَصُونُهُ عن الدَّنَس، والغفران والمغفرة من الله: هو أن يصون العبدَ من أن يمسّه العذاب؛ يقال: غفر له: إذا تجافى عنه في الظاهر وإن لم يتجاف عنه في الباطن، وقيل: اغفروا هذا الأمرَ بِعَفْرَتِهِ، أي: اسْتُرُوهُ بما يجبُ أن يُسْتَر به، والغفارة: خِزْقة تسْتُرُ الخِمَار أن يَمَسَّهُ دُهْنُ الرَأْسِ))⁽⁷⁸⁾، وغفر الله ذنوبه: أي: سترها⁽⁷⁹⁾.

(74) فتح القدير: 424/3.

(75) روح المعاني: 207/11.

(76) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 3/9، ومعالم التنزيل، للبعوي: 438/2.

(77) ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي: 267/4.

(78) المفردات: (غفر): ص/469.

(79) ينظر: اللسان: (غفر): 6/646..

وقال أيضاً: ((التوب: تَزَكُّ الذَّنْبِ عَلَى أَجْمَلِ الْوُجُوهِ، وَهُوَ أْبْلَغُ وَجُوهِ الْاِعْتِدَارِ، فَإِنَّ الْاِعْتِدَارَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ: إِمَّا أَنْ يَقُولَ الْمُعْتَذِرُ لَمْ أَفْعَلْ، أَوْ يَقُولَ: فَعَلْتُ لِأَجْلِ كَذَا، أَوْ فَعَلْتُ وَأَسَأْتُ وَقَدْ أَقْلَعْتُ وَلَا رَابِعَ لِنَدَا، وَهَذَا الرَّابِعُ هُوَ التَّوْبَةُ))⁽⁸⁰⁾.

إذن فأصلُ مادة: (غفر) في اللغة يدور على معنى السَّتر والتغطية، ومنه قيل: غَفَرَ الشَّيْءَ إِذَا سَتَرَهُ وَغَطَّاهُ، وَيُسْتَعْمَلُ هَذَا الْأَصْلُ فِي الْمَحْسُوسِ وَالْمَعْقُولِ؛ فَكَمَا يُقَالُ لَمَّا يُغَطَّى بِهِ الرَّأْسُ مِغْفَرًا، يُقَالُ أَيْضًا: غَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ، أَي سَتَرَهَا وَلَمْ يُظْهِرْهَا وَلَمْ يُؤَاخِذْ بِهَا، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ سُمِّيَ كُلُّ مَا يُتَّخَذُ لِلْوَقَايَةِ وَالسَّتْرِ غِفَارَةً، كَالثَّوْبِ الَّذِي يُغَطَّى بِهِ، أَوْ مَا يُنْقَى بِهِ الْأَذَى؛ فَالْأَصْلُ فِي الْمَادَةِ إِذْنٌ دَائِرٌ عَلَى مَعْنَى السَّتْرِ الْمَصْحُوبِ بِالْوَقَايَةِ، وَمِنْهُ تَفَرَّعَتْ دَلَالَاتُهَا فِي الْاِسْتِعْمَالَاتِ اللَّغْوِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ.

الترتيب والتراخي في دلالة (ثم).

إِنَّ اسْتِخْدَامَ (ثَمَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ لَيْسَ مَجْرَدَ عَطْفٍ لِعُيُوبٍ؛ بَلْ هُوَ تَرْتِيبٌ رَتْبِيٌّ وَمَنْطِقِيٌّ؛ فَالْعَقْلُ لَا يَسْتَوْعِبُ التَّوْبَةَ (الرَّجُوعَ الصَّادِقَ إِلَى الْحَقِّ) إِلَّا بَعْدَ اسْتِشْعَارِ الرَّغْبَةِ فِي التَّخْلِصِ مِنْ أَوْزَارِ الْمَاضِي (الاسْتِغْفَارِ).

وهذا الترتيب يُشير إلى تراخٍ ليس زمنياً بالضرورة، بل هو تراخٍ في الارتقاء المعرفي؛ فالاستغفار هو الخطوة التمهيديَّة الضرورية للوصول إلى مرتبة التوبة النصوح التي تعني توثيق العزم.

ويتعرَّز هذا الفهم إذا نُظِرَ إليه في ضوء البعد التربوي؛ إذ إنَّ التوبة الحقَّة لا تتحقَّق بمجرد القول، بل تقتضي انحلال عقدة الإصرار من القلب، وإلا صار الاستغفار لفظاً خالياً من أثره، لا يجاوز اللسان إلى حقيقة السلوك، ومن ثمَّ تتجلى دقَّة اختيار (ثم) في هذا الموضع، إذ تُبرز هذا الانتقال من مجرد طلب المغفرة إلى تحقُّق الرجوع، في نسقٍ تعبيرِيٍّ يكشف عن إحكام النظم القرآني، وعمق توجيهه في بناء العلاقة بين المفاهيم داخل السياق الواحد.

ففي القرآن الكريم آيات قد يخفى معناها على كثير من العلماء، فضلاً عن غيرهم من عامة الناس، وليس هذا الإشكال مقصوراً على آية بعينها يُقال إنها لا تُفهم، بل الأمر نسبي؛ فقد تُشكِّل آية ما على عالمٍ، في حين تكون واضحة عند غيره، فما يَعرفه أحد العلماء قد يخفى على آخر، مما يدل على تفاوت المدارك والفهوم، وأن فهم القرآن يتنوع بتنوع أهل العلم ومعارفهم⁽⁸¹⁾.

فلا يجوز صرف الكلام عن ظاهره وسياقه إلى معنى آخر، إلا إذا وُجِدَتْ حُجَّة قاطعة توجب التسليم، إما بدلالة واضحة من نصِّ القرآن، أو بخبر صحيح عن النبي ﷺ تقوم به الحُجَّة وتُرفع به الشبهة، أما مجرد الدعوى، أي القول بأن المراد كذا دون بيِّنة، فذلك أمر يسير لا يعجز عنه أحد، إذ يمكن لكل قائل أن يدَّعي ما شاء، لكن العبرة بالدليل لا بالدعوى، وبما ينهض به البرهان لا بما تقتضيه الأهواء أو الظنون⁽⁸²⁾.

(80) المفردات: (توب): ص/83.

(81) ينظر: تفسير سورة الإخلاص، ابن تيمية: ص/137.

(82) ينظر: جامع البيان: 67/7.

ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبيّ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه، وهذا كلام حريّ أن يكون صحيحاً، وما بلغنا أن أحداً ممن ادّعى حفظ اللغة كلها. (83).

الخاتمة

وختاماً يتبين من خلال هذا البحث أن حرف (ثم) ليس أداة عاطفة تؤدي وظيفة تركيبية فحسب، بل هو عنصر دلاليّ فاعل في بناء المعنى، تتجلى من خلاله دقة النظم القرآني وإحكامه؛ فقد كشفت المعالجة عن تداخل عميق بين الأصل اللغوي للمادة، القائم على معنى التدرج واللين، وبين توظيفها النحوي الذي يفيد الترتيب المصحوب بالتراخي، بما يفتح المجال لتتوَع الدلالات بحسب السياق.

كما أظهر البحث أن التراخي في (ثم) لا ينحصر في البعد الزمني، بل يتسع ليشمل التراخي الرتبي، والتدرج الذهني، بل وقد يبلغ دلالة الاستبعاد في بعض السياقات، على نحو يتجلى بوضوح في توجيهات المفسرين، ولا سيما عند من نظر إلى السياق نظراً بلاغياً عميقاً؛ ومن هنا لم تعد (ثم) مجرد أداة ترتيب، بل أصبحت وسيلة للتصعيد الدلالي، وبناء الفروق الدقيقة بين المعاني، وإحداث أثر نفسيّ وبلاغيّ في المتلقي.

وقد بينت الدراسة التطبيقية من خلال تتبع عدد من الآيات أن اختيار (ثم) في السياق القرآني اختياراً مقصوداً تحكمه معايير دقيقة، تتصل بطبيعة العلاقة بين الأحداث، وبمقام الخطاب، وبما يقتضيه الانتقال من معنى إلى آخر، سواء أكان ذلك في سياق الخلق، أو في بيان التحولات النفسية، كما في اقتران الاستغفار بالتوبة، حيث أسهمت دلالة التراخي في إبراز التدرج التربوي في بناء السلوك الإيماني.

وبذلك يخلص البحث إلى أن فهم دلالة (ثم) لا يستقيم إلا بالنظر إليها في ضوء تكامل بين المعجم والنحو والتفسير، وأن أي قراءة تجتري أحد هذه الأبعاد تُفوت جانباً من ثراء الدلالة وعمقها، ومن هنا تبرز الحاجة إلى مزيد من الدراسات التي تتناول حروف المعاني في القرآن الكريم بمنهج تكامليّ يكشف عن أسرارها، ويُسهّم في تعميق الفهم للنصّ القرآني في بنائه الدلالي والبلاغي.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

- [1] الألويسي، شهاب الدين. (د.ت). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار إحياء التراث العربي.
- [2] البقار، أبوبكر حسن. (2017). دلالة "قد" الحرفية في الاستعمال القرآني: دراسة وصفية. مجلة العلوم الشرعية، 3، 269-330.

(83) ينظر: الرسالة، للشافعي: ص/42، والصاجبي، لابن فارس: ص/26.

- [3] البقار، أبو بكر. (2022). مخالفة السياق وأثره في توجيه النص القرآني دراسة دلالية. مجلة جامعة الزيتونة، (42)، 215-232.
- [4] البغوي، أبو محمد. (1992). معالم التنزيل (خالد العك وآخرون، محققون؛ ط3). دار المعرفة.
- [5] ابن تيمية، ابن كثير. (2001). تفسير القرآن العظيم (ط1). مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.
- [6] ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984). تفسير التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر.
- [7] ابن فارس، أحمد. (1997). الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها (أحمد حسن، محقق؛ ط1). دار الكتب العلمية.
- [8] ابن فارس، أحمد. (2008). مقاييس اللغة (أنس محمد الشاوي، محقق؛ ط1). دار الحديث.
- [9] ابن منظور، محمد بن مكرم. (2003). لسان العرب (طبعة منقحة). دار الحديث.
- [10] ابن المنير، ناصر الدين. (2002). الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (ط1). دار المعرفة.
- [11] أبو حيان، محمد بن يوسف. (1992). البحر المحيط في التفسير. دار الفكر العربي.
- [12] الأصفهاني، الراغب. (د.ت). المفردات في غريب القرآن. مكتبة نزار مصطفى.
- [13] الجوهري، عائشة عبد الرحمن. (د.ت). الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرقي: دراسة قرآنية لغوية وبيانية (ط2). دار المعارف.
- [14] حسن، عباس. (2007). النحو الوافي (ط1). مكتبة المحمدي.
- [15] الدعيكي، صالح غيث فرج. (2024). المستدرك على حاشية المعرّب: بعض التصويبات والتعقيبات على تحقيق كتاب حاشية ابن بري على كتاب المعرّب للإمام الجواليقي. مجلة جامعة سرت للعلوم الإنسانية، 14(2)، 177-184. <https://doi.org/10.37375/sujh.v14i2.3104>
- [16] الزيايدي، تراث حاكم مالك. (2013). أثر العلاقات الزمانية بين الأحداث في إظهار دلالة الاستبعاد في القرآن الكريم. مجلة العميد، (5).
- [17] الزركشي، بدر الدين. (د.ت). البرهان في علوم القرآن (محمد أبو الفضل إبراهيم، محقق). دار المعرفة.
- [18] الزمخشري، جار الله. (1998). الكشاف (عادل أحمد عبد الموجود، محقق؛ ط1). مكتبة العبيكان.
- [19] سيوييه، عمرو بن عثمان. (1983). الكتاب (عبد السلام هارون، محقق؛ ط3). عالم الكتب.
- [20] السيوطي، جلال الدين. (1987). الإتقان في علوم القرآن (محمد أبو الفضل إبراهيم، محقق). المكتبة العصرية.
- [21] الشافعي، محمد بن إدريس. (د.ت). الرسالة (خالد السبع وزهير شفيق، محققون؛ ط1). دار الكتاب العربي.
- [22] الشنقيطي، محمد الأمين. (1994). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار الفكر.

- [23] الشوكاني، محمد بن علي. (د.ت). *فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير*. دار الفكر.
- [24] الصحاري، سلمة بن مسلم العوتبي. (2016). *الإبانة في اللغة العربية* (عبد الكريم خليفة وآخرون، محققون؛ ط2). منشورات وزارة الثقافة.
- [25] الطبري، محمد بن جرير. (د.ت). *جامع البيان عن تأويل القرآن* (محمود شاكر، محقق؛ ط2). دار المعارف.
- [26] الزهراني، مشرف بن أحمد. (2006). *أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير)* [رسالة دكتوراه غير منشورة]. جامعة أم القرى.
- [27] القرطبي، محمد بن أحمد. (2007). *الجامع لأحكام القرآن* (محمد إبراهيم الحنفاوي، محقق؛ ط1). دار الحديث.
- [28] المبرد، أبو العباس. (1963). *المقتضب* (محمد عبد الخالق عضيمة، محقق). عالم الكتب.
- [29] المرادي، حسن بن قاسم. (د.ت). *الجنى الداني في حروف المعاني* (فخر الدين قباوة، محقق؛ ط2). دار الآفاق الجديدة.
- [30] المصطفي، حسن. (د.ت). *التحقيق في كلمات القرآن الكريم*. مكتبة لسان العرب.
- ثانياً: المراجع باللغة الإنجليزية
- [31] Elbaqar, A. H. O. (2025). Linguistic Study in Al-Zajjaji's Book "Majalis al-Ulama": A Linguistic Study. *Al-Imad Journal of Humanities and Applied Sciences (AJHAS)*, 1(2), 222-248. <https://al-imadjournal.ly/index.php/ajhas/article/view/83>

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of CJHES and/or the editor(s). CJHES and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.